موقع الأدب المترجم من نظرية تعدد الأنساق

قراءة في أطروحة إيتمار إفن زوهار

حسن الطالب

كلية الآداب– اكادير

تحتل نظرية النسق المتعدد polysystème موقعا مركزيا في النظريات الأدبية التي طبعت المشهد النقدي والثقافي خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي . وما زالت هذه النظرية تحظى في منابر جامعات المعمور بتقدير وإعجاب عدد من الباحثين في نظرية الأدب وتاريخه عامة و قضايا الترجمة الأدبية بخاصة ؛ كما يعد صاحبها– إيتمار إفن زوهار، المولود في تل أبيب عام 1939، علامة بارزة في النقد النظري الأدبي والثقافي في العالم المعاصر، فواضع هذه النظرية يحمل شهادات من جامعة تل أبيب (بكالوريوس ودكتوراه)، وجامعة القدس (م). كما درس في جامعات أوسلو وكوبنهاغن وستوكهولم، وواصل لسنوات متفاوتة تنقله أستاذا زائرا في عدد من الجامعات الأوروبية والأمريكية ومراكز البحوث كأمستردام وباريس وفيلادلفيا ومدينة كيبيك، ولوفين، وسانتياغو دي كومبوستيلا، وسانتاندر، وسانت جون (نيو فاوند لاند) وبرشلونة وسانتا كروز (كاليفورنيا). وكان لإلمامه بعدد من اللغات، كالعبرية والعربية والإنجليزية والفرنسية والسويدية والاسبانية، والنرويجية والدنماركية والإيطالية والروسية والألمانية والايسلندية فضل في صياغة المبادئ النظرية والتطبيقية التي قامت عليها نظريته في النسق المتعدد ،بل إن محاضرته بهذا العدد من اللغات يشكل منه ظاهرة فريدة قلما اجتمعت في باحث في نظرية الأدب والترجمة على وجه الخصوص(1).

منطلقات نظرية: شرع إفن زوهار منذ 1972 في بلورة أدوات البحث النظري والمنهجي لمواجهة التعقيد والتعالق الذي يعتبرهما ميسمان في تكوُّن الأنساق الثقافية– الاجتماعية. فما يسِم هذه الأنساق هي أنها أنساق دينامية ومعقدة وغير متجانسة. في هذا الإطار، اقترح عام 1972، نظرية من البنيات مشتملة على طبقات متعددة من النصوص منطلقا أولا من انتقاده لمجموعة من المبادئ النظرية

في اللسانيات السوسيرية و ميراث الشكلانيين الروس يمكن إيجازها في انتقادين أساسيين: نقد مفهوم التزامن (السانكرونية) وبالتالي البنيات السكونية، التي نادى بها معظم رواد الاتجاه البنيوي فيما بعد في تناولهم للظواهر الأدبية والفنية والفكرية...ذلك أن السكونية ،في نظر إفن زوهار، ليست هي المظهر الوحيد والظاهر الكفيل بتحليل ظواهر التفكير البشري بما في ذلك الظواهر الأدبية والفكرية(2)...الخ وحتى السياق الذي وظف فيه سوسير هذا المفهوم، في معرض تمييزه بين المقاربتين الدياكرونية (التاريخية- التطورية) السانكرونية لا يصح أن يُعتمد في نظره في دراسة الأنساق الثقافية التي تنشأ عن تعاضد وتعارض وتصادم وتنافس وتفاعل جملة من الأنساق الفرعية –تدخل فيها الترجمة طرفا – داخل كلٍّ أهم ما يطبعه هو عدم التجانس كما سبقت الإشارة(3). هكذا يقول إفن زوهار بضرورة مراعاة التفاعل القائم بين المقاربتين ويدعو ،من ثم، إلى ما يسميه "بنيوية دينامية" عكف على توسيعها وتطويرها منذ ذلك التاريخ (1972) إلى أن صاغها في مفهوم إجرائي هو مفهوم "النسق المتعدد" الذي بلوره في أحد أهم كتبه على الإطلاق وهو "أوراق (أو مداخلات) في الشعرية التاريخية" Papers in historical poétique الذي صدر عام 1979 جاعلا من فكرة النسق لدى تينيانوف منطلقه الإجرائي والتنظيري.

فكرة النسق عند تينيانوف : ومن المعلوم أن أول من طرح فكرة تناول الظاهرة الأدبية نسقا هو الشكلاني الروسي يوري تينيانوف(1929). جاء ذلك في معرض التصور النظري لجماعة الشكلانيين الروس التي حاولت في إبانها صياغة نظرية جديدة تصب في الكيفية الأنجع في التعامل مع النصوص الأدبية .ذلك أن القول بالنسق يعني أن الظاهرة الأدبية وظاهرة الترجمة الأدبية ليسا نشاطين منعزلين ومستقلين عن النسق الكلي للثقافة التي يندرجان ويتكوّنان داخلها سواء تعلق الأمر بمرحلة تاريخية محددة ومكتملة الملامح أم تعلق بتاريخ بسلسلة متعاقبة بالمراحل التي تلعب فيها الترجمة دور المحرك الدينامي في بروز نهضات ثقافية .ومن خلال تبني إفن زوهار لهذه المقاربة الجديدة شيد دعائم تصور أقامه على دعامة الأنساق الأدبية بدلا من مفهوم النصوص الأدبية، وهو ما اعتبر فتحا في مجال الدراسات الأدبية التي ظلت ردحا من الزمن متأثرة بما حمله المنهج البنيوي من مفاهيم كانت تشدد في اتجاه انغلاق النص ووحدته العضوية دون اهتمام بما يجاوره أو خارج عنه. أصبح الحديث، إذن، بدءا من عام1980، عن مدرسة تل أبيب في الدراسات الأدبية عامة والترجمة بصفة خاصة، حيث فسحت جهود إفن زوهار المجال لظهور أبحاث مكملة وموسعه حول نظرياته خاصة مع أحد أهم تلامذته

جدعون توري(4) gedeon Toury الذي طور من مفهوم النسق المتعدد ووسع منه في عدد من أبحاثة خاصة رسالته لنيل الدوكتوراه، مما اعتبر قطيعة مع المفهوم التقليدي للأدب والثقافة ،وبالتالي فسح المجال أمام مفاهيم جديدة من قبيل التراتبية والتفاعل والمركز والهامش والأدب المعتمد وغير المعتمد.

المنطلق في نظرية النسق المتعدد أنها تفترض في كل نسق ثقافي عام تعقيدا تراتبيا يعود إلى تعدد المساهمين والمشاركين في بنائه . ويمكن القول إجمالا أن نظرية تعدد الأنساق عرفت مسارا متطورا ما بين1978 إلى 2005 تخللته وقفات من التأمل في نجاعة النظرية وكفايتها وتجريبها على عدد من التجارب الترجمية في العالم كما سنوضح فيما بعد.يتعلق الأمر إذن بمشروع علمي متواصل الحلقات من عام 1979 حتى 2002 مرورا بسنين 1981–1984–1986–1990–1997.

وهي كلها محطات تُوجت بإصدار كتب ومقلات علمية مفصلة وموسعة تجدد في أسس النظرية ومنطلقاتها بناء على الكثير من الملاحظات والانتقادات التي كانت تأتي في صورة ملاحظات وانتقادات من باحثين عاملين بمراكز البحوث و من طلبة الدراسات العليا حيث كان تجريب النظرية على قدم وساق بعد أن اعتمدت في كثير من المنابر العلمية والجامعية بدءا من عام 1982 في مختلف أنحاء العالم وظهرت طروحات تتبنى منهجية النسق المتعدد في كل من الصين وتركيا وإسبانيا على وجه التحديد.

الأدب المترجم والتراتبية النسقية : لقد استخلص إفن زوهر انطلاقا من تطبيق فكرة النسق على الطريقة التي تشتغل بها الظاهرة الأدبية مجموعة من الملاحظات قادته إلى الكيفية التي تمارس بها الترجمة وظيفتها في المجتمعات والثقافات المختلفة وأولى في بنائه لنظريته "النسقَ المتعدد" مكانة مهمة في صياغة الملامح العامة لثقافة من الثقافات ،بل في وسعها تغيير الملامح العامة لهذه لثقافة إذا ما احتلت موقع المركز بدل الهامش. بداية ينطلق إفن زهر من النسق الأدبي لصياغة نظرية أساسية في الترجمة تقوم بإسناد دور لهذه الأخيرة في إحداث تغييرات جوهرية في اللغة الهدف وبالتالي في لغة الاستقبال. فالنسق الأدبي(5) نسق كلي macro systeme مكون من أنساق فرعية.ويشكل الأدب المترجم نسقا فرعيا داخل هذا الكل وفيه يميز بين نوعين من النصوص هما :النصوص المعتمدة Canonical Text أي تلك النصوص المعترف بشرعيتها نصوصا رسمية ومهيمنة في أدب معين من قبيل الشعر والرواية والمسرح ...الخ و نصوص غير معتمدة(6) Non Canonical ويعني بها النصوص الهامشية أو ما يسمى بلغة اليوم الآداب الموازية أو الأدب الشعبي كالحكايات وأدب الأطفال والرواية البوليسية وغيرها.

إن ما يميز وضعية النسق المتعدد هو التنافس والتدافع الذي يتخذ صورة صراع وتوتر متواصل بين المركز والهامش داخل النسق وهو ما يعني أن الأجناس الأدبية في حقبة تاريخية معينة تدخل في تنافس وتدافع للوصول إلى مركز النسق. أهم ما يميز النسق المتعدد إذن:

– أن النماذج النصية (اختيار النصوص المترجمة، فرديا أو مؤسسيا ،هي عملية واعية إرادية وقصدية في آن) تحددها حاجات أدب اللغة الهدف أو الاستقبال .فهذه الأخيرة هي التي تحدد نوعية النصوص التي ينصرف إليها بال الترجمة. إنها تنتقي و تختار من آداب اللغات الأصل ما تراه يلبي حاجة أو نقصا يسد ثغرة من الثغرات .

– أن النصوص المترجمة تعتمد عند ولوجها إلى أدب اللغة الهدف سلوكيات خاصة ومميزة. إنها نصوص تحاول أن تمحي عنها صفة النص الدخيل أو الثانوي أو الهامشي وتسعى إلى تحقيق استقلالية ما عن النماذج النصية الرسمية الأصلية وبالتالي تبتكر لنفسها أدوارا جديدة، وتسعى بوجه من الوجوه إلى إحداث تأثيرات جوهرية تروم من خلالها خلخلة صورة نقاء الأصل وتعاليه.

–أنه (إفن زوهار) صاغ مصطلحان أساسيان هما ما يسميه عناصر أولية وعناصر ثانوية ويعني بهما تلك العناصر التي تحدث التأثير الذي تمارسه النصوص المترجمة في أدب اللغة الهدف. فإما أن يكون هذا التأثير من نمط محافظ وهذا يحدث عندما يكون نسق الأدب المترجَم في ثقافة من الثقافات نسقا هامشيا . وإما أن يكون مجددا أي عندما يكون نسق الأدب المتَرجَم نسقا مركزيا في ثقافة من الثقافات، بل إننا نرى حالات كثيرة جنسا من الأجناس الأدبية الذي ينتمي إلى العناصر الأولية عندما يصل إل مركز النس يرنو، مع مر الزمن وحسب حقبة قد تطول وقد تقصر، إلى أن يصير شكلا متجمدا لماذا؟ بكل بساطة لأنه تحول إلى شكل استترف كل قواه ولم تعد له القدرة على البقاء والاستمرار مما يفسح المجال رأسا لشكل جديد كل الجدة، لكنه لا يلبث بدوره أن يتحول إلى عنصر محافظ بعد استنفاده لجديده. ويرى إفن زوهر أن مسألة أن يكون للأدب، في ثقافة ما ،وظيفة محافظة أو مجددة أمر رهين بعوامل متعددة:

أولها: إذا كان الأمر لا يتعلق بنسق متكامل الأركان مثلا بأدب يافع يخطو خطواته أو قيد التشكل الأولى و منفتح انفتاحا كبيرا على التأثيرات الخارجية .حينئذ يكون الأدب المتَرجم أدبا مجددا ويضطلع بأدوار مهمة في آداب اللغات الهدف (7).

ثانيهما: إذا تعلق الأمر بأدب وطني هامشي وفي هذه الحالة يلعب الأدب المترجم دورا مركزيا كذلك. لماذا ؟ لأنه أصلا أدب آت من ثقافة قوية لها حضور في الأصل كالثقافة الأنجلوفونية

والفرنكفونية والإسبافونية وفي المقابل تكون ثقافة الاستقبال هنا في موقف ضعف مما يجعل الأدب المتَرجم دورا تجديديا.

ثالثهما: ويتعلق بوضعية الآداب المأزومة التي تمر بتحولات وتغيرات أو بأزمات أو بفراغ أدبي فإن الأدب المترجَم يكون كذلك أدبا مجددا.

ترسانة الاستدلالات هذه كلها لها نتائج واضحة على استراتيجيات الترجمة وانتقال النصوص من ضفة إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة .فالترجمات المخصصة لأنساق ثقافية تتمتع بنوع من الحصانة والمناعة والتماسك، أما التي مرت بمراحل من الازدهار والإشعاع فتهيمن عليها استراتيجية تكييفية مصدرها الثقافة المصدر .ومن هنا وباستعمال مفهوم أساسي لدى جدعون توري فإن سلوك الترجمة موجه نحو المقبولية acceptabilité وبناء عليه ولكي يجد النص النموذج prototexte مكانة داخل الثقافة الجديدة ،وبشكل أدق داخل دائرة النصوص الأدبية في لغة الاستقبال، فهو مضطر لأن يخضع لتحويلات بنيوية يتكيف بموجبها مع ملامحها وخصوصياتها العامةcanons ، مما يعني أن يتجانس النص في توجهه العام مع ثقافة اللغة الهدف. وبموجب هذا التصور تنزع هذه الأخيرة إلى تملك النص الدخيل وتبيئته بشكل يتيح فتح إمكانيات توليد جديد في رحم هذه الثقافة.

وفي الأنساق الثقافية الهامشية التي تلعب فيها "أنساق الأدب المترجَم" دورا مركزيا ووظيفة تجديدية فإن استراتيجية الترجمة تكون حينئذ مستقلة عن قواعد الثقافة الموازية؛ من جهة أولى لأن تلك القواعد ضعيفة جدا، ومن جهة أخرى لأن مثل تلك الثقافة تكون منفتحة أكثر على التجديد وعلى التأثيرات الخارجية والغنى الذي يكون مصدره ثقافات أخرى غالبا ما تكون ثقافات التخوم أو الثقافات المجاورة. في هذه الحالة غالبا ما تنحو ثقافة الاستقبال نحو تحقيق نوع من الكفاية من خلال ممارسة الشروحات والتكييفات أو باختصار تبيئة الأدب المترجَم.

وما دام النشاط الترجمي يساهم في سيرورة إبداع نماذج جديدة أولية عندما يحتل هذا النشاط موقعا مركزيا فإن الانشغال الأساسي عند المترجم حينئذ يكون منصرفا أكثر لا إلى البحث عن نماذج جاهزة ضمن الخانات التي تكون فيها النصوص الأصلية قابلة للتحويل والنقل فقط، بل إن المترجم غالبا ما يعمد إلى خرق أعراف ثقافته مما يفسح المجال إلى محاولة خلق نصوص تضاهي الأصل وتحاول أن تحل محله عن طريق فرض هيمنة على الأصل وإخضاعه لكل مقومات ثقافة الاستقبال جماليا ودلاليا وهنا تكون الترجمة واعية بمقاصدها من منازعة الأصل قوَّتَه وحضورَه.

وعلى الرغم من الملاحظات النقدية التي يمكن توجيهها إلى نظرية النسق المتعدد، خاصة فيما يتصل بدرجات التفاوت بين آداب اللغات الأصل وبين نظيرها في آداب لغات الهدف ، وصعوبة التمييز بين مظاهر التأثر والتأثير التي لا يمكن الحسم في طبيعتها خاصة عندما نستحضر مسألة الأصول والامتدادات فيبقى أنها نظرية ملائمة للعديد من الآداب العالمية التي كان للترجمة فيها صولات وجولات و لم يحل ذلك دون احتلال النظرية لموقع مركزي في نقد الترجمات كما أشرنا في بداية هذه الدراسة .كما حظيت باهتمام كبير من لدن نقاد الترجمة ودارسيها في مختلف أنحاء المعمور. وما كان ذلك متيسرا لولا البناء النظري المتماسك المدعم ببراهين وشواهد من الآداب العامية التي يتقاطع فيها الثقافي والأدبي والترجمي ضمن وحدة واحدة مندمجة في البناء الثقافي الاجتماعي الذي يسم الحضارات والثقافات المعطاءة .

الهوامش

1-لعل هذا العامل هو الذي جعل نظرية تعدد الأنساق مطبقة على الأدب المترجم تحظى باهتمام كبير في أوساط نقد الترجمة خاصة والترجميات بعامة.

2- - *Théorie de la traduction et des relations interculturelles.*Even-Zohar, Itamar, et Gideon Toury, p 13. eds. 1981. Poetics Today.

3--*Les relations entre les systèmes primaires et secondaires dans le polysystème littéraire* Even-Zohar, Itamar 1979. ." Dans *Actes du Congrès international de l'AILC septième.* Vol. II: littérature.p 17.voir Tel Aviv 1978 . p .45. aussi *Papers in historical poétique*

4-يعد جدعون توري من أهم تلامذة إفن زوهار وإليه يرجع الفضل في تطبيق النظرية وتوسيعها آفاقها مرتكزا على مفهوم "معايير" الترجمةnormes .

5- - Itamar 1986 «Système, littéraire«*Dictionnaire encyclopédique de la sémiotique »,* Thomas A. Sebeok et. eds. (Berlin et New York

6-+انظر في هذا الصدد شرحا مفصلا لهذين المفهومين ضمن المقالة الثالثة من القسم الأول من كتابه" Papers in historical poetics بعنوان "موقع الأدب المترجم في نظرية تعدد الأنساق" ص 21.وكذلك المقالة الواردة في القسم الثالث وهي مقالة تطبيقية أساسا بعنوان : Russian and Hebrew The case of Dependent Polysystem .ص. 75

7- - Eve Zohar 1999. Théorie du polysystème 1979. «." *Poetics Today* 1 (1-2, automne), p. 287- 310.p 292.